

تاريخ النضال

بين العلم والدين

مراجعة وتلخيص عن كتاب الاستاذ درابر Draper

— ١ —

بدأ المؤلف كتابه بمقدمة استهلها بان الطبقات المستنيرة في أوروبا وأمريكا أخذت تبتعد عن الاعتقاد بسلطان الاديان ، وأن نفوذ رجال الدين لم يعد يؤثر في السياسة العالمية ، وان الروح الحربية الدينية قد اضمحلت وانمحت ، على الرغم من أن البابوية لا تزال تدعى تمثيل آراء ثلثي سكان القارة الاوروبية ، وتزعم أنها تسيطر على أرواحهم ، ثم يرجع الى الكلام في الزمان الذي كان للمسيحية فيه سلطة سياسية ، فيعده مبدءاً للنضال بين الدين والعلم . وكذلك تاريخ المعرفة فانه لا يقتصر في اعتقاده على الاكتشافات التي تواترت خلال العصور الحديثة ، بل يقول بان المعرفة كانت نتاجاً لتنازع قوتين متعارضتين : الاولى - رغبة الذكاء الانساني في التوسع من جهة ، والثانية : الميل الى الاعتقاد مع الرغبة في المحافظة على المصالح الذاتية من جهة أخرى .

« نشوء العلم » — بدأ الاستاذ « درابر » بوصف حالة بلاد اليونان قبل المسيح بأربعة قرون ، فقال بان الاغريق في ذلك العصر كانوا قد سبقوا بالعلم ما وصلت اليه تعاليم أديانهم بمراحل كبيرة . فان النظريات والمبادئ التي وضعها فلاسفتهم قد أعانتهم على تحرير عقولهم عامياً الى حد بعيد . وكان مؤرخوهم قد وصلوا بطريقة البحث التي انتحوها الى الوقوف على الاسباب التي أدت الى النتائج التي بدت لهم جلية

(١) احتفظ المؤلف لنفسه بحق إعادة الطبع وبحق الترجمة ويؤمل الملخص أن لا يعتمد أحد الى الانتفاع مادياً من هذا التلخيص لان المقصود منه هو أن يقف العالم العربي على امتع ملابسات به قرائح مفكرى الغرب .

على صفحات الدهور ، فازداد الشك في المعجزات والخوارق الطبيعية ، وبدأت الثقة بالتقاليد التي تناقلتها الاجيال عن الاولياء والقديسين تقل وهذا على وهن وحالا على حال . وكان للتجربة أكبر الاثر في ذلك . فانهم لم يقفوا على أثر لما رد من المردة ولا بطل من ابطال الاساطير ، على الرغم من أنهم جابوا أنحاء العالم المعروف في زمانهم ، فمخروا عباب البحار ورصدوا النجوم . وكان التجديف والاحاد أول الاسلحة التي تسلح بها العامة وطالبو القوت ورجال الدين ضد العلماء وأرهقوهم بها ارهاقا ، فنفي منهم من نفى وشتت من شتت وقتل من قتل . وليس لهذه الظاهرة في سبب اللهم الا اكبار الخروج على التقاليد والآراء التي عكف عليها السلف القديم منذ أجيال بعيدة . وأكثر ما في هذه الظاهرة من قوة ليس له من سبب الا سلامة النية وحب القديم وان كان فاسداً .

ولما اشتد ساعد العلم ومضى الباحثون يظهرون ما في التعاليم المقدسة من بطلان ، لجأ المغرضون الى التويه والسفسطة مدعين أن أغراض العلم والفلسفة إنما تنحصر في القصد والغاية لا في الصورة ، وفي المعنى لا في المبنى ، وفي الباطن لا في الظاهر . وقد رموا المجددين بأنهم إنما يأخذون ببحث الاعراض تاركين الجواهر التي تحمل تلك الاعراض ، وبدؤوا يفسرون التعاليم المقدسة ، عاملين على أن يرتقرا كل فتق يظهره العلم فيها ، وفي معتقداتهم بالاستتباع ، بآراء وتعاليم جديدة ، كانت تقترب شيئاً فشيئاً من حقائق العلم ونظريات الفلسفة الجديدة رغم أنوفهم ، حتى أخفقوا في الاحتفاظ بالهيكل القديم كما كان ، فأخذ يهدم حجراً بعد حجر ، حتى اندثر وباد مع ما درس من آثار الاقدمين .

ولقد كان للحروب التي وقعت بين الاغريق والفارسيين أثرها المحتوم . فقد أثاحت الحروب لأبناء إغريقية أن يتعدوا حدود بلادهم ضرباً في الارض ، فوقعوا خارج أوطانهم على أشياء تشابه تلك الخوارق والمعجزات التي نسبوا حدوثها الى أباطهم وآلهتهم ، بل وجدوا أشياء تبرز في عظمتها ومجدها ما زين لهم الوهم وما صور لهم الخيال . ومع هذا فلم يعثروا على أثر أو شبه أثر يدل على أن الشعوب التي خست بهذه العظمة الارضية كانت تعبد مثل ما يعبدون من آلهة . ناهيك بما وقفوا عليه من مذاهب دينية جديدة ، جذبت الى ناحيتها عقول فلاسفتهم وخيال شعرائهم ومعلميهم ، بل العامة من مختلف الطبقات .

بهذا دخل عنصر جديد في مجال اختباراتهم . ولا يغرب عن أفهامنا أن انتصار الفارسيين قد عقبه هدم المعابد والهيأكل اليونانية دون أن يجراً الله من آلهتهم الكثير على أن يحرك ساكناً أو يبدي اعتراضاً ! وما مثل هذه الحوادث التجريبية في التاريخ الا كمثل النيران المتسعة التي تصهر المعادن لتفصل عن العناصر النقية الفضلات الزائفة . هذه حوادث تبعث على التفكير نارا تصهره في أتون الزمان ، لا لتحجوه ولا لتحلل أجزائه ، ولكن لتنقيه من الاساطير التي يرثها عادة من أزمان قصية ويقبها على أنها حقائق واقعة بحكم ما فيه من اخلاص المنقول عن الاوائل دون اختبار أو تمحيص .

وما وصلت الحوادث الى هذا الحد حتى بدأت فكرة التوحيد الزرادشتية ، بعد أن امتزجت بمذهب الازدواج — رجوع العناصر الى أصلين اثنين — وغيرها من النظريات المجوسية القديمة ، تهى أفكار اليونانيين لقبول عناصر جديدة ، زادت الى ما كان لديهم من مميزات النشوء والارتقاء .

وبعد أن مات الاسكندر المقدوني ، وتربع بطليموس (سوتار) على عرش مصر ، أم الاسكندرية ان طوعاً أو كرهاً أرهط من اليهود توالى نزوحهم اليها حتى لقد كان لجماعتهم شأن يذكر بين سكان هذه المدينة ، وكانت البقية إما مصريين أو إنريقي . ومن هذه الحاريقى امتزج الفن الإنريقي والفلسفة الإنريقية بالآلهيات العبرانية ، ومن هذا التركيب المزجى في الآراء والأفكار والمعتقدات والفنون تكونت النواة التي قامت عليها مدرسة الاسكندرية . ولقد توالى بعد ذلك الاستكشافات العلمية وكثرت المخترعات ، حتى أصبح الدين وسيلة لاختضاع العامة تسهيلات قيادتهم وضماناً على اخلاصهم للقانون ، لا أقل من هذا ولا أكثر . وإنا لانغالي اذا قلنا بأن نواة العلم الحديث قد غرست في أول عصورها في مدرسة الاسكندرية ، ومنها أنبعت دوحة العلم . على أننا لا ننسى أن ذكر للصين وما بين النهرين أثرهما في علم الفلك وما استكشفا فيه من حقائق ودا نثرا حوله من آراء .

وهنا ينتقل الأستاذ « درابر » الى البحث في نشوء النصرانية ، ومن ثم يتكلم في نزعتها الى الامبراطورية ، ثم في صلتها بالعلم ، ثم يقول : ان النصرانية هي الهبة الكبرى التي وهبتها الدولة الرومانية لسكان هذه الارض ، وان التوسع

الاستعماري الذي جرت عليه الدولة الرومانية قد دثر بممالك عديدة ، وباندثارها بحيث آثار آلهتها التي احتكمت في تصورات أبنائها الازمان الطوال ، كما محى من صفحات التاريخ ذكر ملوكها ومعاهدها ونظاماتها . وكانت روما بداءة ذي بدء مضطرة لأن تشرك مع آلهتها آلهة آخر تستمد هم افتراضاً من الامم الاخرى . ولكن جاء زمان اضطرت فيه مقتضى الحال أبناء روما على أن يردوا القرض لآلهه ، أو ينثروه في الهواء ، أو يذروه مع الريح . فأخرجوا من حظيرة الآلهة كل اله دخيل عليهم غير أصيل في خيالهم . وكان لذلك أثر كبير . فبعد أن تعددت آلهة الرومان وكثرت بتعدد أبطالهم الفاتحين وتكاثر ضروب المصالح الدنيوية ، وتضارب صور الفكر التي تستتبعها في الوجود ، واضطروا الى محو كل أثر للآلهة الدخيلة عليهم ، أنتج هذا المحو والاثبات شعوراً قال من خطر الآلهة في نظرهم على وجه الاجمال ، اقلالا كان له أثره الثابت في الحضارة الرومانية . أضف الى ذلك تعارض تينكما النظريتين : النظرية الغربية القائلة بتأليه البشر بعد تربعهم في عرش السماء : والنظرية الشرقية القائلة بتجسد الآلهة السماوية وظهورهم بمظهر البشر ولم يكن بعد هذا كله من مفر من أن يتجه اعتقاد الرومان الى التوحيد كنتيجة لقيام امبراطوريتهم العظيمة ، التي جرهم قيامها الى الانغماس في الترف والتماهى في اتباع الهوى والتهافت على كبار الائم والفواحش

وكان لهذه الفوضى نتائجها العكسية . على ان هذه النتائج لم تظهر جلية واضحة الا عندما اقترب عهد الانحلال وظهرت آثاره البينة في أجزاء تلك الامبراطورية الكبيرة . هنالك كثرت جمعيات التقوى والزهد في جميع أنحاءها . وحدث في سوريا ان التفت من حول بوحنا المعمدان جماعة ، كما التفت حول غيره جماعات أخر . وفي هذه البيئة بثت تعاليم المسيح فوجدت أرضاً خصبة قوية العناصر . كيف لا وقد كان اليهود ينتظرون هبوط المخلص للاقامة بينهم والاخذ بيدهم ليرد عليهم ما فات من ازدهار عصورهم الأولى . غير ان كهنتهم قد شعروا بمرارة عندما رأوا أن صاحب الدعوة الجديدة قد جراً على ان يهاجم بعض شعائهم ، فاضمروا له الحفيظة وباتوا له على دغل وحقد ، ثم أساموه الى الدين صلبوه انتقاماً وارواء لظلمة التشفى الذي أكل صدورهم . غير ان موته كان سبباً في أن يكثر اتباعه ويتضاعف عددهم مرات ، حتى لقد نشؤوا نظاماً شيعوياً ،

لعله أول نظام قام على هذه الفكرة في تاريخ الدنيا ، اندمج فيه الفرد في المجموع ، وأصبح للسكل ما كان ملكاً للفرد ، فكان لليتامى والمرضى والمساكين والارامل وأبناء السبيل والمستضعفين ، نصيباً مماثلاً لنصيب أى فرد مهما كانت حالته من الصحة والقوة والقدرة على الانتاج . وعلى الجملة أصبحت ثروتهم مشاعاً .

وكان لقيام هذا النظام على أساس من الدين سبباً في ان تتوى شوكة الكنيسة وأن يمتد نفوذها ، حتى أشعبت سطوتها السياسية ، وأصبحت قوة زمانية كما هي قوة روحية ، وأخذ سلطانها يمتد الى احشاء الممالك المستعبدة ، فهافت الناس عليها رغبة منهم في حمايتها لمصالحهم وأرواحهم . وهكذا بسطت المسيحية جناحيها السحريين على آسيا الصغرى وعلى جزائر البحر الأبيض المتوسط ، ثم هاجمت بلاد اليونان وولايات الرومان النائية . وكان الفضل الاعظم في كل هذا للمبشرين ، ولطريقة التبشير ، وهى طريقة فات كبار المفكرين منذ أول عصور التاريخ ان يتخذوها ذريعة لبث أفكارهم ومذاهبهم ومعتقداتهم .

على أننا لازلنا نلث على هذا غير قليل حتى نرى روما مباءة لبث هذه الدعوة الروحية . وفي هذه المدينة القديمة وضع القديس بطرس الاسس الاولى التى قام عليها بناء المسيحية المشمخر . ذلك لان بيت المقدس لم يكن فى ثراه من الصلابة ما يحتمل ان يقوم عليه مثل هذا البناء . ولم يكن فى بيت المقدس من قابلية الفكر ولا من الاستعداد الطبيعى ، ما تستند اليه مثل هذه الاسس الكبرى . فى حين ان روما كانت ملتقى البحر والبر ، كما كانت أقل مقاومة للفكرة الحديثة من فلسطين ، مريض اليهودية ومعقلها التاريخى . كذلك كانت روما فى دور انحلال اجتماعى فشت فيه منازع الاستهتار والتهتك . ولكن بيت المقدس كانت مركزاً لدعاية أمة مستعبدة مشتتة فى أطراف الارض ، مدفوعة بكل مآلديها من قوة الى مقاومة كل ما تشعربان فيه قضاء على كيانتها أو دينها .

واستيقظ الرومان من غفوتهم . ولكن بعد فوات الوقت . فرأوا الخطر المهدق بميراثهم الدينى والاجتماعى ، فاعملوا السيف فى المسيحيين ، ولكن على غير جدوى . فان الحزب الجديد كان نفوذه قد أخذ فى التضاعف والازدياد ، حتى ان الامبراطور قسطنطين ، رغبة منه فى توطيد ملكه ، قد خضع للحقيقة المموسة فانضوى تحت لوائه قسراً فى الواقع ، وان كان قد ترأس الحزب فى الظاهر . ولقد مدت اليه

الأيدي من جميع أنحاء الامبراطورية لتنصره ، فكبت مزاحميه وانتصر عليهم ، وتوج كأول أمبراطور مسيحي ، فكان ذلك الحادث سبباً في ان يدخل الناس في دين المسيح أفواجاً ، لاعتناق بتعاليمه ، ولكن طمعاً في حمايته . وهذه الخطوة هي الخطوة الاولى التي أدت الى انتشار كل الاديان على اختلاف ألوانها وتباين درجاتها .

وأنت ترى ان استعداد العقل البشرى لهضم الآراء والفكرات الجديدة لا يتحول عن مجراه القديم بسهولة مهما كانت قوة العوامل الداعية لنشر الجديد من المبادئ أو المذاهب أو المعتقدات . لهذا انتج اندماج غير المقتنعين بصدق تعاليم النصرانية في تضاعيفها نزعة جديدة صبغت المسيحية بالصبغة الوثنية التي لانزال آثارها بارزة حتى اليوم في جبين الكثير من طقوسها . فنظام القديسين وانايرة الشموع واطلاق البخور والانحناء للصور وتقديم النذور ، كلها طقوس وثنية أخذت تصطبغ بالصبغة المسيحية حالاً على حال حتى أصبحت كأنها من أصول الدين المسيحي ، شأن كل الاديان في ترابط صورها وانتقال نظاماتها باللقاح . ثم انسلت فكرة التثليث من مدرسة الاسكندرية ، وكانت قد تشبعت الى حد كبير بتعاليم الكهنة المصريين الذين أدمجوه ، وعلى رأسهم اتناسيوس المصري ، في اللاهوت المسيحي . وكان هذا مبدءاً خلاف عنيف وجدل عقيم بدأ بالتساؤل عن امكان المساواة بين الاقانيم الثلاثة الآب والابن والروح القدس . ثم تطور البحث تطوراً آخر فتناول جوهر الابن والطبعيتين والمشيعتين ، ثم عمده الى ادخال عبادة العذراء ، وما تبع ذلك من الفظائع التي اقترفت وكانت « هيباشياً » احدى ضحاياها ، فقصت الاضطهادات الدينية على كل أثر للفلسفة في مدرسة الاسكندرية ، وكان هذا مبدءاً النضال بين الدين والعلم اذ طرحت على بساط البحث موضوعات كان لابد من ان تؤدي الى هذا النضال . واليك أمثال منها .

(١) هيباشيا (٣٧٠ — ٤١٥ م) من كبار من اشتغل بالرياضيات والفلسفة ولدت بالاسكندرية وعاشت بها . وهي ابنة ثيون — Theon — وكان فيلسوفاً رياضياً . وقد علق على مبادئ اقليدس وعلى كتاب المجسطي في الفلك . ويقال بأن لابنته أثراً كبيراً في هذه التعليقات المدرسية . وكان قد اعترف بها كرئيسة لجماعة الاملاطونيين الذين كان يطلق على مذهبهم اسم الاملاطونية الجديدة . وكانت على جانب كبير من العلم والفصاحة وبلاغة التعبير .

١ — هل تسبب الموت عن خطيئة آدم أم هو أمر طبيعي لازم ؟

٢ — هل كان الموت موجوداً قبل خلق آدم ؟

٣ — اين صنع الله السماء والارض ؟

٤ — ماذا كان يصنع الله قبل أن يخلق السماوات والارض ؟

وهنا حاول فريق أن ينقض المزاعم الدينية — اللاهوتية — ببراہين عامية ، كما حاول فريق آخر أن لا يسلم بصحة النظريات العامة الا اذا أولت بما يوافق ما جاء في سفر التكوين معتمدين على أقوال القديس أوغسطين ، واستخفوا بالتطبيق والطرق الاختبارية . ومن أمتع ما تقع عليه في جدل اللاهوتيين قولهم عند ما حاولوا أن ينفوا كروية الارض : « هل من المعقول أن تتصور الساكنين في الجهة المقابلة لنا من كرة الارض معلقين بأرجلهم ورؤوسهم معلقة الى أسفل ؟ وكيف يتناخ هؤلاء أو يروا الآلهة باطناً الى الارض يوم القيامة من السماء ؟ أما علومهم اللاهوتية فاليك مثال منها في الجغرافية :

« الأرض منبسطة ومتوازية الاضلاع . طولها سفر أربعة يوم من الشرق الى الغرب ، ومائتي يوم من الشمال الى الجنوب ، وهي محاطة بجبال بسط عليها الافق . أما شمال الارض فمرتفع كما أن جنوبها منخفض . ولذلك يسرع انحدار الدجلة والفرات ، في حين يبعث انحدار النيل »

ولقد كان لهم في اثبات أقوالهم طرق طريفة فعالة . فكان اذا قال لهم قائل ان العشرة اكثر من الثلاثة مثلاً قالوا كذبت فالثلاثة اكثر . أما البرهان فنار متلظية وعذاب مقيم . فكان من أيسر الامور التسليم بصحة البرهان . وأما النظرية فن ذاك الذي يجبر على أن ينقضها ؟ (يتبع)

عمر عنایت

في الفخر

قال مهيار: قومي استولوا على الدهر قتي	ومشوا فوق رؤوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهم	وبنوا أبياتهم بالشهب
قد قبست الملك عن خير أب	وقبست الدين عن خير نبي
وضممت الفخر من اطرافه	سؤدد الفرس ودين العرب